

التصورات المسبقة للقيامة في قانون الفصح

البروفسور ميخائيل ترييتوس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

ما من نصٍ آخر قادر على التعبير بهذه القوة والكمال عن البعد الخلاصي والوجودي والماورائي للقيامة كما يعبر القانون الذي لا نظير له للقديس يوحنا الدمشقي.

إنه تحفة من الشعر البيزنطي، وواحدٌ من أروع النصوص في أدب العالم كله. فيما هو مليء بالتعبيرات الشعرية للروحانية السامية ورسائل الخلاص، يعلن قانون الدمشقي للناس في جميع العصور "بشرى القيامة"، وإبادة الموت، ووفرة الحياة، والانتصار الأخروي. إلى هذا، فإنه يصف بشكل خاص أبعاد فرح القيامة وخاصيته. إنه بالأخص يرسم الطريق ويضع الشروط اللازمة لنا لنرى الرب القائم من بين الأموات. كما أنه يقوّي الناس في جهودهم للتغلب على الشر الطبيعي والأخلاقي من خلال الرؤية واليقين من المساهمة "في نهار ملكوته الذي لا يغرب".

إن العناصر الرئيسية التي تشكل عظمة هذا القانون الرائع هي التعابير الشعرية الرائعة، واختيار المفردات الأكثر جاذبية في اللغة اليونانية الغنية، مع نَفَس الإيمان والرجاء الحماسي، وعلى وجه الخصوص وفرة الخبرات القوية للحياة.

أحد العناصر الأساسية الملحوظة في القانون هو التصورات المسبقة للقيامة في العهد القديم، والتي يمكن العثور عليها من خلال جميع طروبارياته. هذا ما سنتناوله في هذه المقالة الفصحية.

إن أول تصوير مسبق للقيامة في العهد القديم موجود في إرمس الأودية الأولى في القانون، ويتعلق بكلمة "فصح". من المعروف أن الكلمة العبرية "بيساك" pesach تعني الفصح. بالنسبة لليهود، كان ذلك يعني تحررهم من العبودية للمصريين وإقامتهم في أرض الميعاد. بالنسبة للمسيحيين، الفصح pascha يعني العبور من الموت إلى الحياة، من العبودية للخطيئة إلى الحرية كأبناء الله، من قوى العالم السلبية إلى قوى القيامة الإيجابية. وكما أن اليهود الذين تحرروا من العبودية لفرعون ردوا ترنيمة نصر، هكذا يرثم إسرائيل النعمة الجديدُ نشيد النصر، إذ إنَّ ربنا القائم قد أجازنا من الموت إلى الحياة ومن الأرض إلى السماء. كما يكتب القديس غريغوريوس اللاهوتي: "هذا الفصح، هذا الحدث العظيم الموقر، 'بيساك' لليهود بلغتهم، يشير تاريخياً إلى العبور والهرب من مصر والارتحال إلى كنعان. روحياً، هو يعلن التقدم والصعود من الأسفل إلى الأعلى، إلى أرض الميعاد".

التصوير الثاني للقيامة هو "المشروب الجديد، غير المستخرج بآية باهرة من 'صخرة صماء'"، كما يضعه القديس كاتب التسابيح في إرمس الأودية الثالثة. بحسب الرواية الكتابية عن الخروج، عندما عطش الإسرائيليون في البرية، ضرب موسى الصخرة الصماء بعصاه مسبباً فيضان المياه، مما سمح للإسرائيليين بإرواء عطشهم. يرمز هذا الحدث إلى "المشروب الجديد" الذي يتدفق من القبر الحامل الحياة في القدس،

والذي يعد مصدر عدم الفساد. هذا هو سرّ الإفخارستيا الإلهي، الذي أسسه الله، عيد الفصح الأبرز للكنيسة، الذي يُعطى "لمغفرة الخطايا والحياة الأبدية". بهذا يختبر المؤمنون العبور المذهل إلى واقع جديد، ناجمة/باكورة عيشة أخرى أبدية".

في إرمس الأودية الرابعة، وبراعة فنية شعرية فريدة، يدعو القديس يوحنا النبي حبّوق إلى إعلان القيامة. لكي يستحق حبّوق أن يكون نبياً، وقف حارساً على صخرة. إنه مدعو هنا [في الإرمس] لكي يقف على صخرة روحية ويُرِي الناس "الملاك المتشح الضياء". إنه الملاك الذي يقف بجانب القبر الفارغ ويعلن للعالم أن "المسيح قد قام بما أنه على كل شيء قدير".

في الطروبارية الثالثة من نفس الأودية، يُسَمَّى المسيح "الحمل الحولي" [١].- لتذكّر خلاصهم من عبودية المصريين، كان اليهود يذبحون حمل الفصح الذي كان يبلغ من العمر عاماً واحداً. كان هذا الحمل صورة مسبقة للحمل في العهد الجديد، يسوع المسيح، الذي دُيخ "من أجل حياة العالم وخلصه". إن استهلاك حمل الفصح [أي أكله من قبل اليهود المحتفلين بالعيد] يرمز إلى سر الإفخارستيا الإلهية، حيث يُقدّم حمل الله "كطعام وشراب للمؤمنين".

تقارن الطروبارية الرابعة من الأودية الرابعة بين النبي الملك داود وبين شعب الله. فمثلما رقص داود بفرح عندما أحضر تابوت العهد من مدينة ياريم إلى أورشليم، هكذا أيضاً، تبتهج الجماعة المسيحية في الكنيسة عند رؤية "نجاز الرموز" الذي تمّ في حدث القيامة العظيم. إن الكنيسة، باعتبارها تابوت النعمة الجديد، تأسست على قوة الصليب والقيامة ولهذا فهي لا تتزعزع وثابتة.

في إرمس الأودية السادسة تُعرض نواب يونان باعتبارها واحدة من أهم التصويرات المسبقة للقيامة. في الرواية المألوفة، أُعطي يونان أمراً من الله ليكرز بالتوبة في مدينة نينوى. لكنه عصى الأمر الإلهي وركب سفينة لتأخذه إلى ترشيش. لهذا عاقبه الله. تعرضت السفينة التي كان مسافراً على متنها لخطر الغرق، وإدراكاً منه لخطيئته، طلب من طاقم السفينة إلقاءه في البحر، وهذا ما فعلوه. ثم، بأمر من الله، ابتلعه وحش من العمق، وبقي ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في بطن الحيوان. في النهاية، ألقى الحيوان الضخم يونان على اليابسة، حتى تمكن من الذهاب إلى نينوى وتنفيذ أمر الله. إن إقامة يونان في بطن الوحش وخروجه المُعجِز منه هو تصوير مسبق لدفن المسيح لثلاثة أيام وقيامته. قال الرب نفسه: "لأنّه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ" (متى ١٢: ٤٠).

لقد سمى موسى يوم عيد الفصح العظيم اليهودي بأنه "مُعَيّن" و"مقدس". "ويكون لكم في اليوم الأول مَحْفَلٌ مَقْدَسٌ، وفي اليوم السابع مَحْفَلٌ مَقْدَسٌ" يُشار إلى يوم الفصح اليهودي بأنه "مدعو" * لأنه الله نفسه اختاره من قبل. إنه "مقدس" لأنه مخصص له. يستخدم القديس يوحنا المصطلحين "مدعو" و"مقدس" في طروباريات الأودية الثامنة من قانون عيد الفصح. تم تعيينه على أنه "مدعو" لأنه يشكل "الاحتفال الأبدي بالسبت، اليوم الثامن، كأول ثمار زمن الملكوت الأسراري، كنقطة انطلاق لتجديد كل الأشياء". إنه "مقدس" لأنه اليوم الذي يعلو على كل الأيام الأخرى كونه المكرس للرب.

في إرمس الأودية التاسعة، يطوّر كاتب التسابيح بشاعرية نبؤة إشعيا ويكيفها مع مجد القيامة في الكنيسة: "فُومي استنيري لأنّه قَدْ جَاء نُورُك، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكَ" (أشعيا ٦٠:١). في الأرمس، يصبح هذا: "استنيري استنيري يا أورشليم الجديدة، لأن مجد الرب أشرق عليك". تشير عبارة "أورشليم الجديدة" إلى الكنيسة و"مجد الرب" هو قيامة المسيح المجيدة التي ينطلق منها المجد الإلهي. إن قيامة المسيح، التي تُصوّر بشكل رائع في قانون الفصح من خلال التصويرات المسبقة من العهد القديم، هي حدث نصر ذو أهمية وقوة عالمية. بالقيامة تسحق قوة الشيطان ويموت الموت ولا يبقى الفساد. لهذا السبب هو "عيد الأعياد وموسم المواسم". يعلن القديس غريغوريوس اللاهوتي بحق: "لقد جاء الخلاص اليوم إلى العالم، للعالم المنظور وغير المنظور. المسيح قام من الأموات فقوموا معه. عاد المسيح مرة أخرى إلى ما كان، عادوا أيضاً. تحرر المسيح من القبر، فتحرروا من قيود الخطيئة. انفتحت أبواب الجحيم والموت أبيض. آدم القديم قد رُذِل، والجديد قد اعُثِر. إذا كان أحد في المسيح فهو خليفة جديدة. جددوا أنفسكم..."

* في اليونانية تُترجم كلمة "مدعو" عادةً إلى "المختار"، وهو أمر معقول تماماً، ولكن للأسف ليس دقيقاً تماماً. تكمن المشكلة في أن كلمة "kliti" هنا ليست صفة ليوم، بل هي اسم، تعني "دعوة". الجذر الأساسي في اللغة اليونانية هو الفعل "kaleô" الذي يعني استدعاء "يجب أن يُدعى"، أو الدعوة إلى الاجتماع. يحتوي النص العبري الماسوري على "miq'rā-qodesh" ("دعوة") مرتين ("وفي اليوم الأول سيكون هناك محفل مقدس وفي اليوم السابع محفل مقدس")، لكن مترجمي الترجمة السبعينية، التي يستند إليها القانون، ربما كانوا يعملون على نص مختلف أو ربما أرادوا تجنب التكرار. فنفس الجذر، "kaleô"، يعطينا أيضاً "ekklesia" ("دعوة")، وهو الكلمة اليونانية لكلمة "الكنيسة" [محرر النص الإنكليزي]. من هنا أن الترجمة العربية "المدعو" هي أقرب إلى المعنى الأصلي لاشتقاقها من دعوة، لكن المشكلة هي أنها تبدو كصفة لليوم، فيما ينبغي أن تكون مضافة إليه [المترجم].

[١] الحولي هو ما يتم دورة حياته خلال حول أي سنة [قاموس المعاني].

Source: Professor Mihail Tritos, School of Theology A.U.Th. Prefigurations of the Resurrection in the Easter Canon. Pemptousia. Religion / Theology. 25 April 2023. <https://pemptousia.com/2023/04/prefigurations-of-the-resurrection-in-the-easter-canon/>